

القدوس انبىا يعقوب
المجاهد الثائب

يوسف حبيب

القاص بهشوى عبد المسيح

مقدمة

هذا الكتاب

عثرنا على هذه القصة في بادية الامر بخطوطه بدير السريان العامر . ولكن المخطوطة لم تذكر سوى الناحية القصصية دون تحديد تاريخي دقيق ، وبعد تحقيق وبحث داماً مدة طويلة عثرنا على أصل تاريخي للقصة . فوجدنا هذه القصة في سنكار الكنيسة القبطية مختصرة جداً وكانت نهايتها ناقصة فلم يذكر شيئاً عن سقطلة القديس وتوبته . ولكن ذلك ذكر في سنكار ريبه باسيه الذي ذكر حياته بأكثر تفصيل خاصة من الاول عما ذكرته المخطوطة .

أخيراً عثرنا في كتاب قديسو مصر - أوليري ، على القرن والمكان الذين عاشا فيهما القديس ، وفي النهاية حاولنا ربط القصة في هذه الصورة التي بين يديك أيها القارئ العزيز .

+++

هذه القصة

هي قصة لأحد آباء البرية القديسين توضح حياة التوبة بالنسبة للقديس سقط ! ولكن هذه القصة توضح لنا . . .

توبة القديسين

مثل كل توبة نحتاج إلى بداية من جديد في طريق الرب بانضاع زنا السحاق وتدم ودموع ، ويلبغى أن نعلم أن كل انسان معرض للسقوط لا فرق بين قديس وغير قديس لأن التحصن ضد السقوط هو فقط في الالتساق بالرب ، وفي الإلتحاف بموتته إن كنا نطلبها بلجاجة واحتياج .

ولكن إن كنا قد سقطنا فيجب أن نعلم :

٧٩ - الرجوع فرحة

إن التوبة حزن وألم وبكاء . . . فكيف يؤول هذا الحزن

إلى فرح . . . ١٩٠

من الطبيعي إذا أخطأ عبد إلى سيده فإنه يحزن خوفاً من سيده ولا يقى حزن بعد معرفته بصفح سيده (ولكن لا أعود أسمى عبيداً) (يو ١٥ : ١٥) . فتعال معي يا أخي لتعلم كيف نحزن على خطايانا كأبناء . . . إن حزن الإبن يكون شديداً حتى

بعد صفح الاب لا سيما وإن كانت علاقة هذا الابن قوية بأبيه
قبل سقوطه (كما سترى في توبة الاب يعقوب) .

الاب يصفح عن ابنه حتى ولو كان ما يزال بعيداً ... ولكن
عواطف الابن تبقى متأثرة ووجهه مخزياً - نعم فهو يحسب ما صنع
أمام أبيه الذي يحبه شيئاً كثيراً ، لذلك يظل قلبه ينطق بأخطأت .
لست مستحقاً أن أدعى لك ابناً ، لو (١٥ : ١٨ : ١٩) .
ياله من عجب ! في الوقت الذي يبسكي فيه هذا الابن يسكون
الاب ناسياً ما صنعته ولا يعود يذكر خطاياہ ابدأ . الاب مبتهج
بعودة ابنه اليه لكن الابن لا يكف عن الندم والخزي والحجل
في حضرة أبيه ٤١١

لذلك قال ابن يسكي ويحزن لا لتغير خطاياہ أو ليعني من
فصاص بل لانه يعلم أنه جرح عواطف أبيه العجب فليس بعجيب
إن كان ندمه وحزنه يستمران طويلاً . . . ١١

هو يحزن ولكن حزنه في الرجاء . لانه يعلم أن بنوته لم تمتح ابدأ .
وأنت يا أخى لماذا تتوب توبة الاجراء . . ٤١٠

لا تقبل يا أخى صلياً بدون يسوع - لان الصليب بدون يسوع
غير محتمل وكذا الحزن بلا رجاء .

وإن يسوع من أجل السرور الموضوع أمامه لإحتفال الخزي
مستهنأ بالعار . . . فالذي يشجعنا على إحتفال الحزن هو الرجاء
الموضوع أمامنا .

ثانياً - الغرض من الشعور بضعفنا

لا يقصد الكتاب المقدس من اسمسارنا بضعفنا الشخصي
وتحذيرنا من عدونا وتخويفنا من الخطية إلا أن يملأنا فقط :
أن سر قوتنا وخلصناهما من الرب الذي منه المعرفة فلا نكف
عن طلبها فهو المحارب عنا والمتصرقينا فلا تنفصل بشعورنا
ببرنا الذاتي عنه . فليس المقصود من شعورنا بضعفنا بالنسبة
لا يلبس أن نرتعب منه بل أن نخذر منه فنحن نستطيع بقوة الله
أن نسحقه تحت أقدامنا ، ولا يطلب منا أن نخاف من الخطية
إلا لكي نسر ونلح في طلب معونة الله ونهرب من الشر .

لتعدو شيطان السماء

للخطية تأثيرات مختلفة على النفس فقد تؤدي إلى أن نغمض
عيوننا عن نعمة الإنجيل وقوة خلاص ربنا وعمق محبته لنا
فنجد القديس يعقوب بعدما أخطأ احتجاج إلى من يكشف عن
عينيه ثانية تلك الأمور .

وإن كان الله أحياناً يسمح من أجل كبرياءه فينا أن نسقط

في بعض الخطايا بما يعتنا كما سقط هذا القديس لكن ينبغي أن يحذر من يسقط من شيطان الكآبة الذي يقب السقوط ، فهو يحارب الساقطين لكي يأسوا ويتركوا طريق الرب أو يخسبوا من نعمته .

لا نستمع إلى تعبيرات عدونا ولا نتركه يشمت بك مادمت في طريق الرب بل ، ليرجع إلى الورا ، ويرتد إلى خلف جميع الذين يبتغون لي الشر .

لأنه من هو هذا الفلسطيني الأثقف حتى يعبر صفوف الله الحي ، (١ ص ١٧ : ٢٦) كيف تباأس وأنت في طريق الرب ؟ وإن أردت أن تعلمن تعال وانظر :

هوق محبة الله

ان الانسان الشرير لا يستطيع أن يقبل ءالله محبة ، لأنه لا يشعر أن الله يحبه مع أن هذا الشعور كفيف بأن يرجعه الى الله وكثيرا ما يرمينا عدونا بالشعور بعدم محبة الله لنا ربما لأجل كثرة آثامنا وشدة شعورنا بخطايانا لكي يبعد عن قلوبنا رغبة الله الاكيدة في خلاصنا وانتظاره وفرحه برجوعنا هوذا الشيطان يهه أن يملأ نفوسنا بالكآبة إلى الدرجة التي يلسينا فيها محبة الله العجيبة لنا فيصور لنا صدره الحنون المتسع خفيفاً وضيقاتاً بل مغلقاً

مع أن الرب نفسه ارتضى أن يدعى محباً للعشارين والخطاة ١ - هوذا الرب نفسه يرد بقسوة على لابي زبدي (لست أعرف من أى روح أنتا) (لو ٩ : ٥٥) لانهما تكلمتا بمثل هذه الروح على أهل السامرة . ألا يكفي أن نعلم أنه أحبنا ونحن بعد خطاة ؟

اذن لا ينبغي ان نفضل ذواتنا عن محبة الله بهذه السكيفية أو أن تشغل خطايانا - مهما كانت كثرتها - كل تفكيرنا بل بالحري محبة الله لأن هذا الشعور الاخير يرمينا في حضنه المفتوح على الصليب من أجلنا . قاله لا يهه أن نوهم أنفسنا بخطايا هذا مقسدارها لأن ذلك ليس غرض الله من التوبة بل بالحري أن نشغل بهجته فهو القائل ، أحب الرب إلهك من كل قلبك وكل فكرك وكل قدرتك . .

انه حسن أن أبكي على خطاياي وأحزن عليها ولكن ينبغي ان أعلم أن خطاياي هذه مهما كانت لانستطيع أن تمنع محبة يسوع لي أو تمنعني عن محبته فليست الخطية أقوى من المحبة !!

أخيراً يا أخى ينبغي أن تعلم أن التوبة لغة الله المحب العاطوف على البشرية الساقطة يفهمها كل الذين يستجيون لمحبهه فيرجعون

إليه والوقت يقبلهم ويصفح عن آثامهم وينسى تعدياتهم بل يعيدهم
إلى رتبته الأولى . . .

فلا عجب ان العالم لا يمكن أن يقبل ما لروح المسيح لان العالم
لا يصفح عن أخطأوا إليه وكذلك أبناء هذا الدهر .

لكن أولاد الله يفغرون لمن يسيئون إليهم ولو كان ذلك
إلى سبعين مرة سبع مرات لذلك فالتوبة هي أيضاً لغة أولاد الله
الذين لهم صورة أبيهم السماوى .

+ + +

الفصل الأول

القديس الجاهد (١)

« معونتي من عند الرب »

مز ٥٢٠

(١) راهب قديس عاش في القرن الرابع الميلادى بمنطقة تريا .

يحدثنا بلاديوس (أ كبير مؤرخ كتب عن سير آباء القرن الرابع الذي عاش فيه) فيقول: هناك في تريا قضيت زهاء ثلاث سنوات قابلت فيها ما يربو على الألفين من أعظم الرجال القديسين الذين عاشوا هناك - إمتازوا بمعرفتهم الروحية وفضائلهم الكثيرة وعاش كل راهب المعيشة التي تلائمه، إما بمفرده أو في جماعة. وألحق بكثيرة الدير منزل خاص بإقامة الغرباء، أما الذين يرغبون في الإقامة مدة طويلة بالدير فكانوا يطالبون في العمل والخدمة كما يسمح لهم بالمطالعة في أوقات الراحة. وفي وقت المساء كانوا يستيقظون على أصوات التمجيد والمزامير والصلوات التي كانوا يرفعونها باستمرار حتى كان يخيل للإنسان أن عقله خطف إلى جنة عدن . . .

وفي نظرة هذا الفردوس الأرضي عاش هذا الراهب المجاهد

أبنا يعقوب وانفرد متوحداً في مغارته التي أقام بها حوالي خمسة عشر عاماً (لا يعرف تاريخ رهبنته على وجه الدقة) - أجد نفسه فيها بالاصوام والصلوات المستمرة وتعلم كيف يعيش لله فقط ولا عجب فهذا القديس كان قد هرب من المعيشة في العالم منذ حداثة سنة، ويقال أنه انفرد في حياة الوحدة منذ بداية رهبنته وظل في عزلة طيلة هذه المدة لم يدخل فيها المدينة قط .

٢ - جمال حياته الأولى

كان هذا القديس محباً للوحدة والسكون ولكن كانت هناك دوافع في نفسه تدعوه لخدمة الغرباء، ولربث على ما يبدو متردداً بين الانجهاين، ولكنه استقر أخيراً في الوحدة يقطع شوطاً طويلاً في حياة الفضيلة والجهاد حتى سما إلى درجة عالية، وكان يتسم بجرأته في الحياة الروحية وقوته في عزمه وجديته. ظل هذا القديس يواصل جهاده من يوم إلى يوم في حياة صرية مع الله، لا يعلم به أحد من الناس، إلا أن رائحة الحياة الزكية لا بد أن تفوح، والله الذي لن يكف عن أن يتمجد في قديسيه ويكرمهم أراد أن يعان به . . .

مرة جاء أحد الأشخاص إلى نتريا لكي يستشفى من مرضه إذ كان شيطان يعذبه ، وفي الطريق وهو مار بقلية هذا القديس ، صرخ الشيطان ولم يدع الرجل يعبر ، وأخيراً خرج منه بصوت مرعب وفي غيظ شديد ، وفي الغد لما وصل هذا الرجل إلى البيعة المقدسة ولم يكن يعلم سر ما حدث لكنه لما حدث الآباء الرهبان عن قصته عرفوا السر . . . لأن المريض كان قد عبر بقلية القديس يعقوب .

ذاعت هذه القصة بسرعة بين سكان نتريا وللحال إنلف حوله كثيرون ممن بهم أمراض فكان يشفيهم بقوة الله . وقد حباه الله موهبة لإخراج الأرواح الشريرة (١) . ولو أن هذا أدى إلى انقلاب المغارة من الوحدة والسكون إلى مكان للزائرين ، إلا أن القديس لم يخرج عن سكوته وبجمال عبادته مع الله بل صار زائروه سبباً لتعزيبته ، وكان يصلي لجميع الآتين له . وازدادت نعمة الله للقديس في صنع العجايب والمعجزات وكان لذلك أثر

(١) قال رب المجد : لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم ولكن بالحرى أفرحوا لأن أسماءكم قد كتبت في ملكوت السموات .

حتى على زائرين من الوثنيين وكان يجذب الكثيرين منهم إلى المسيح ويرسلهم إلى البيعة المقدسة لكي يمددوا باسم الثالوث الأقدس واستمر في عمله هذا حتى ضجرت منه الشياطين وأرادت أن ترعبه . . .

٣ - الشياطين تحاربه

ومصارعتنا ليست مع لحم ودم بل مع
الرؤساء مع سلاطين . . . مع أجناد
الشر الروحية في السماويات . . .

أف : ٦ : ١٢ .

ظهر له مرة الشيطان بهيئة جسمية وقال له : ويا يعقوب قد ضجرت إلى النساءى لأنك تخرجني من كل موضع لي ، أفلقت راحتي ولم تتركني أستريح ساعة واحدة . . . ، ولما أبصره القديس عرفه وقال له لوقت : وماهي قدرتك أنت حتى تقف أمام الرهبان وترعبهم ؟ والنفت إليه القديس بقوة ورفع عكازه الذي كان موسوماً بعلامة الصليب وضرب الشيطان على رأسه ثلاث ضربات منتهراً إيماه وقائلاً : الرب يسوع المسيح يعيدك عنا أيها الشرير الطاغى يا ابن الهلاك ، غشاف الشيطان العدو وهرب . . .

كثر زوار القديس الذين أتوا ليستشفوا من أمراضهم أو يطلبوا بركاته وصلاته وكان يرثمهم ويعزيمهم ، فأراد عدو كل بر أن يستغل هذه الفرصة لكي يفسد في الوسط حسب عادته بالنسبة لكل عمل صالح .

حدث أن إحسان عليه قوم أشرار فجعلوا امرأة خاطئة تزين وأنت إليه ودخلت إلى المغارة لعلها تنزله بالحطية ، ولكن البار كان مازال في نصارته الروحية فكلمها بكلام الحياة بقوة وكانت كلماته مؤثرة كالسيف الحاد حتى ارتعدت المرأة ولححت على وجهه نعمة لم ترها في أحد من البشر من قبل فانطبعت هذه الصورة في نفسها واشافت إلى التوبة والعبادة على مثال هذا القديس ، لذلك صرخت بدموع وتدم فأرسلها القديس إلى أحد القديسين المشهورين في المنطقة لكي يتقبل منها الاعتراف .

+++

القديس الساقط

لماذا أسلك كثيراً من مضايقة
عدوى .. أرسل نورك وحقق فإنهما
يهديانني ويصعداني إلى جبلك المقدس إلى
مسكنك تجاه وجه الرب الذي يفرح شبابي .

+++

لماذا أنت حزينة يا نفسي ولماذا
ترجعيني . توكلني على الله فأني أعترف
له . خلاص وجهي هو لهي .

مز ٤٠ .

١ - الشعور بالقوة

أول درجات السقوط

بعد أيام ليست كثيرة جاء الشيطان مرة ثانية وقال له :

« يا يعقوب يا يعقوب قد ضربتني ثلاث ضربات ممكن أن تداوى
ولكني سأضربك ثلاثاً يعسر شفاؤها ، ، ويبدو أن القديس كان
قد لإستهان بقوة أعدائه فلم يعد يهتم كما يجب باليقظة الروحية ولم
يداول على اللجاجة في طلب المعونة من الله ، والتفت القديس إلى
العدو وصرخ في وجهه وانتهره فتركة العدو الى حين . . . »

٢ - حيلة ابليس الثانية

اشتهر أمر القديس وبلغت معجزات عمل نعمة الله فيه كل
أحد مما في ذلك السلاطين والولاة وظل طوال هذه المدة لم
يجرؤ عدو البر أن يقترب منه جهاراً ، وإن كان قطعاً لم يكف
عن محاربته سرأثم عاد الشيطان إليه مرة أخرى ليجره - وحيل
عدونا دقيقة ومصائده خفية وشراكة منصوبة - وذلك بأن
دخل في ابنة والى ذلك الإقليم ولم يكن لايها سواها فلما صرعا
الشيطان أحضر لها أبوها الأطباء وهؤلاء أجهدوا أنفسهم

واستخدموا كل حيلهم في علاجها ولكنهم لم يفلحوا ، ولم يكن
نصيب المنجمين بأحسن حال من الأطباء الذين استحضروهم والديها
بل بالعكس لزيادة صرعاها فأصبح والديها في حيرة شديدة ، وإذا
تعب جداً قال له أحد عظمائه : « دامت لنا سعادتك يا مولاي ،
قد عجز هؤلاء عن شفاء ابنتك ، فإن كان رأى مولاي أن تحمل
هذه الابنة إلى الرجل الساكن هذه المنطقة المدعو يعقوب الراهب
غربما يكون شفاؤها ببركة صلواته ، فقد شفى كثيرين ، فتنفس
الاب المنحير ، الذى كان يتلف إلى أى مشورة الصعداء وقال لهم
« أسرعوا على اسم إله هذا الراهب بتنفيذ المشورة . حملوا
الصبية في أكرام ووضوا بها إلى حيث كان أبنا يعقوب . . . وفي
الطريق ما كادوا يقتربون من قلايته حتى هرب الشيطان منها وهو
يقول : اللهم ! اللهم ! ما أطبق أبصر وجه هذا القديس .
تعجب الرجال جداً لما حدث وحملوا الصبية سالمة إلى أبيها وفي
تلك الاثناء رجع أحدهم وقص ما جرى على القديس وأعطاه
بعض الهدايا من السلطان فرفض أن يتقبلها وباركه .

لكن الأمر لم يدم طويلاً حتى رجع إلى الصبية الروح النجس
ثانية مما اضطر الرجال إلى أن يحملوها إلى القديس . . . ولما
مثلت بين يدي القديس هرب الشيطان منها . ولكنهم لما حملوها

إلى والدها رجع إليها الروح النجس أيضاً وتكرر الأمر عدة مرات فأخبروا والدها بذلك فتمجب وتحمير جداً ولم يجد أمامه إلا أن يرتب لها خداماً لخدمتها وأن يضعونها على مقربة من قلاية القديس الذي لما سمع رفض في بادئ الأمر رفضاً باناً غير أنه تردد وقبل أخيراً خاصة لما أرسل إليه والدها السلطان رسالة يستعطفه ويترجاه . . . إلى أن دخلت الصبية قلاية القديس !

كان حالها يدخلونها باب القلاية يهرب الروح النجس منها ولكنّه يرجع إليها بمجرد خروجها من القلاية، ويتكرر العملية عدة مرات أصبح من السهل اقناع القديس أن تبقى داخل قلايته بصفة مستمرة ، فكلوا ويمضون لها الطعام والشراب داخل القلاية .

(أن تبقى فتاة داخل قلاية أحد الرهبان أمر خطير ، انها لا شك حيلة شيطانية) .

+++

٣ - كل قتلها أقوياء

أم ٧ : ٢٦ .

مرت الأيام والإبنة رافدة في أحد جوانب القلاية ، ولما كان يوم من الأيام أراد عدو كل بر أن ينقم من القديس الذي كان غارقاً في أفكار كثيرة عن قوته ومجده الروحيين ولم يفكر في حاجة الناس الشديدة إليه حتى أتوا بهذه الإبنة في قلايته وقد سببت له هذه الأمور نوعاً من الاسترخاء الروحي بما جملة فأتراً في طلب معونة الله بقوة ، مخاطبه لميائيس بنفس المتعاق السابق .
منطق التهاون (١) .

(١) ان من أهم عوامل سقطة الانسان هو أن يتكاسل في محاربة أسباب الخطيئة لأن ذلك يولد فيه التهاون وعدم اليقظة . وعندما يكسل في طلب المعونة من الله بلجاجة ينشط بالتأكيد ، لذلك يحدونا الكتاب أسهروا... أهربوا من الشر ومن كل شبه شر ، وبلغنا القديس مكاريوس الكبير بأن الرب جعل كل مقاومة الشيطان في حدود استطاعة إرادة الانسان وحريته . ولكن لم يعط الانسان قوة كاملة يستطيع بها أن يسيطر على كل انفعالاته النفسية وشهواته ، ولذلك يصدق القول . . . ان لم يبن الرب البيت فباطلا تحب البنائين . . . (مر ١٢٧ : ٢) .

فلا نجب ا من سقطة هذا القديس لأننا مما بلغنا من القداسة سوف لا نتنصر أبداً بقوة الشخصية ، وهذا هو سر حاجتنا الملحة الى التضرع والسهر والصلاة كل حين بلجاجة .

٤ - سقطلة القديس

• أذن من يظن أنه قائم فليظن أن لا يسقط ،

١ كو ١٠ : ١٢

استلم المسكين لافكاره ووقع في صراع مرير وكليهما مر
وقت كان يرجع إلى الوراء ففتقر عزمته وأخيراً سقط .

٥ - خطية تقود إلى خطية

يقول القديس يوحنا النرجسي : • بعد أن
نكون سقطنا في غفوة فلنحارب بالأخص شيطان
الحزن والكآبة ، ويكل القديس غريغوريوس :
• لأن من يقطع رجاءه فإنه يقتل نفسه ، ولا
تركوا لاجل هذا طريق الرب بل أثبتوا بالحرى
بشجاعة ونشاط في خدمته ، .

ظل القديس في سقطته وجاءه شيطان اليأس الذى يعقب
السقوط ، وملا عقله بأفكار كثيرة . فقال له • بعد أيام قليلة
سيظهر عليها الحل ، يا ويلك سوف يظهر أمرك ... ماذا ستعمل ...
أنت أبصر ...

انه بالتأكيد سوف يأتي أصحابها ليفتقدوها ولا بد أن
يقتلوك ، الأفضل لك ان تصنع هذه المشورة - أن تقوم وتقتلها .
فنهض القديس على الصبية وقتلها وجرى مسرعاً وحمل
جسدها وطمره في الرمل .

٦ - تعيير العدو له

ظهر له إبليس في صورة أحد غلمان الملك الذين جاءوا
ليفتقدوا الصبية كالعادة ولما لم يجدها استخبر عنها من الراهب ،
فما كان من القديس الا أن كذب فأعلمه أنها خرجت من عنده
وصرعها الشيطان وهامت على وجهها حتى أقترسها وحشر ردىه
وقتلها فدفتها - فقال له ذلك الرجل المنتسب بالخدادم ياراهب
أخاف أن الملك يطالبك ، لذلك أريدك أن تحلف لى خلف له ، فلبا
حلف صـرح له الشيطان بذاته وقال له حينئذ بصوت السخريه
• يا يعقوب يا يعقوب أين طهارتك ؟ أين قداستك ؟ أين صلاتك ؟
أين قوتك ؟ وازعاجك لى ؟ وتخرجنى من بيتى كل حين ، وقد
ظننت أنك ضربتني ثلاث ضربات سهلة الدواء . أبصر هذه
الثلاث ضربات العسرة الدواء . . .

+ + +

يا الأسف الزائد والحزن المبرح ! من يستطيع أن يكشف
عن حالة هذا الرجل ، وم كم كان مقدار حزن نفسه التي صعدت فقد
كان قلبه كالبحيرة الملتفة بجمرات الندم فصار قلبه كالآنية
المكسورة والمسحوقه كإرماد ، الخالما سمع هذه الكلمات من
عدوه انكشفت عن عينيه غمامة الخطية حتى اطعم وجهه وترك
باب القلاية مفتوحا وخرج هائماً على وجهه بلا عكاز تائماً يندب
نفسه بالويل والعيويل . . .

+++

الفصل الثالث

القديس التائب

« الرب يقيم السافطين . . . »

مز ١٤٥

كأب حقيق تعبت معي أنا الذي سقطت

« من قداس القديس غريغور بوس »

« لا تسمعني يا عدوتي فلاني إن

سقطت أقوم . . »

ميخا ٧ : ٨ .

١ - عناية الله بالقديس

« سعت في طلب الضال »

القداس الإلهي

ترك القديس القلاية وفي قلبه أن يرجع إلى العالم ويترك رهبته لأنه يشئ نتيجة سقطاته . . . ولكن الله الذي لا يشاء موت الخاطيء . والذي قال أنه لا يقدر أحد أن يخطف خرافه من يده لم يمن عليه أن يترك هذا القديس يهلك . فأرسل إليه راهب قديس قابله في الطريق ، فلما رآه كثيراً سأله أن يعرفه ما عرض له ، فلما أظله كشف عن عينيه نعمة لإنجيل المسيح وعزاه وشدد قلبه وأخيراً أمره أن يداوم على الصوم والصلاة وتركه لنعمة المسيح ومضى ، وكان هذا بعد أيام قليلة من سقطته .

٢ - فدمه وانكساره

كان القديس صائماً لم يفطر من وقت سقطه بل كان يبكي وينتحب بدموع غزيرة جارية كأنها المطر المنهمر ، ثم بقي تائباً في تلك الجبال والبراري يمتاز الصحارى والأودية ، ولا يستظل من الشمس بالنهار ولا يستتر بالليل من الصقيع ، بل كان يتعذب

وهو ينتحب ويلتم وجهه وصدره دائماً وظل هكذا سائراً ستة يأكل من عشب البرية ، وبعد تمام هذه المدة وجد طافوساً خرباً (مقبرة خربة) كانوا يدفنون فيه الموتى فدخل فيه وبسط يديه لكي يصل فلم يستطع . . .

٣ - توبته وصلاته

ظل القديس يجاهد في الطافوس لكي يصل وأخيراً رفع يديه وهو منكسر القلب وانسكب نفسه في عبارات كثيرة وصرخ قائلاً : « أرحمني يا رب ثم أرحمني ، أنظر يا رب إلى ، أنا هو الحزين ، أنا هو الشقي ، أنا هو الخاطيء . بالحقيقة - قد أخطأت يا رب أرحمني واظهر في كل صلاحك ليتعجب الخاطئون ويرجعون إليك .

آه أيها الرب أفرح بي كما ذكرت في إنجيلك المقدس أنك تفرح بخاطيء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة .

نعم يا رب بهذه الحيلة أخذني العدو واستولى علي ، أرحمني يا رب ثم أرحمني أنا هو الشقي بالحقيقة ، أنا هو الحزين بالحق - أرحمني يا رب وإلهي يسوع المسيح أنا هو المخدوع المسكين ، أنا

هو الذى لى خمسون سنة أقرن وأضع فى المخازن وفى ساعة واحدة
ضيعت جميع ما خزنته ، أنا هو الضعيف البائس الذى لى خمسون
سنة أجمع وفى طرفة عين بددت الجميع .

أى عين رديئة أستطيع يا سيدى أن أرفعها نحو السماء ؟
لا تطرحنى يا رب قدام وجهك . الويل لى وعلى يا رب ثم
الويل - فى نهار واحد قد أكلت جميع الخطايا ، وبلى ثم وبلى
أريها المسيح إلهى ، زيت و قنلت وكذبت وحلفت فى نهار واحد .
الويل ثم الويل الاعظم لى يا رب ، أنا تركتك يا رب فسقطت
هكذا . . . أرحمنى يا صاحب معادن الرحمة والجملة والحياة ،
أرحمنى يا رب أنا الذى أهلكت الجسد الطاهر وقتلته ، والآن فى
التراب ذفتته ، أرحمنى يا رب ثم أرحمنى . . .

داود يا رب الذى دعوته حسب قلبك وكان مستغنياً عن
العجور سقط وزل ولكن ليس كمثل زانى يا رب ، كما قلت فى إنجيلك
القدس ، ان زانية طلبتك فخلصتها فأرحمنى يا رب ثم أرحمنى -
سامعنى يا رب برحمتك ، لا تنظر يا رب إلى خطاياى ولا تجعل
يا رب الأرض أن تفتح فاهها وتتلعنى لأجسل عظم خطاياى
لا يا رب ، لا تصرف وجهك عني ولا عن دعوتى وصراخى
الصاعد إليك من قلب عتوق وبائس ، أنا أعلم يا رب أن لسانى

نجس وعيني مملوءة لئماً ويبدأ ماطخة بتلويث الدم الطاهر
بغير ذنب ولا خطية . أرحمنى يا رب ولا تأمر النار فتسزل من
السماء وتحرقتى . . .

وصار يبكى والدموع تنزل من عينيه كمثل لون الدم غزيرة
كالقطر ، ويقال ان العشب نبت تحت قدميه من الدموع وصار
طعامه من ذلك العشب . وكان واقفاً على قدميه بين عظام الاموات
ولاذ أزعجه فلق الندم كان ينمس يسيراً ثم ينهض ويبسط يديه
إلى السماء ويصرخ بأعلى صوته أسمعننى يا رب وارحمنى كمعظيم
رحمتك . . .

وأقام هكذا حوالى سبعة عشر عاماً .

† † †

تعزيات الله للقدّيس

- حوات نوحى إلى فرح لى ،
- مزقت مسحى ومنطقى سروراً ،
- مز ٢٩
- ... لأن رحمتك أمام عيني هي ...
- مز ٢٥

أرجعه إلى رتبته الأولى ...

حدث بعد هذه الايام أن خربت البلاد التي كانت محيطة بتلك المقبرة وصارت جماعة عظيمة فيها . فرأى أسقف تلك المدينة في رؤيا الليل شخصاً يقول له : « إن كنت تريد أن تنزل رحمة الله على الأرض وتمتليء الأرض نعمة ، إمض إلى رجل يقال له يعقوب المجاهد في ذلك القبر الخرب ، وعندما يطلب هذا من الله نجيء الرحمة ، وهذه علامة له على غفران خطاياہ ، فلما سمع الأسقف ذلك في منامه استيقظ برغبة شديدة وخرج لوقته هو وجماعته ثم مضوا إلى ذلك المدفن فوجدوا القديس فيه قد صار كالشبح . ولما دخل إليه الأب الأسقف أخذ بركته وطلب منه أن يصلى لسكى تأتي مراحم الله ، وما أن سمع يعقوب هذا الكلام حتى لطم وجهه وهو يبكي ويقول ويلى يا أبى من هو أنا الحاطىء الزانى القاتل الحائث ، أبعث الآن عنى واطلب غيبرى ، ثم رفع عينيه إلى السماء وقال « ألقنى يا رب يا سيدى ولا تفضحنى فإنهم يحسبونى كما كنت أولاً قبل أن أسقط فى خطاياى السمجة ، لا تفضحنى يا رب بين يدى خليقتك ولا تعجلنى بين يدى عبيدك ، واجعلنى من أصحاب الساعة الحادية عشرة ، أرحمنى يا رب ، »

مراجع الكتاب

- ١ - مخطوطة رقم ٢٨٠ دير السريان .
- ٢ - كتاب قديسو مصر ، د . أوليرى .
- ٣ - السنكسار المستعمل في الكنيسة .
- ٤ - سنكسار رينيه باسيه .
- ٥ - أدبرة وادى النظرون ، ايفلين هوايت .

† † †

فأمسك الأب الأسقف بيديه وأخرجه إلى خارج القبر وقال له
من أجل محبة الله أرحم هذا العالم واطلب من المسيح ليرحم
عبده فقال : دعنى يا أبى لاننى ما أقدر أرفع عينى إلى السماء
لأجل خطاياى . . .

وبعد خطاب طويل رفع عينيه إلى السماء وبسط يديه إلى
خالقه وقال ليكن كرحمتك ولا كخطاياى ، وحيث تكون رحمتك
لا مكان لآثر الخطية . أسألك يا رب بصلاة هذا الأب الأسقف
أن ترحم يا رب هؤلاء الاطفال الذين لم يخطئوا إليك ولم يعرفوا
خيراً ولا شراً . ولم يتم هذا الكلام إلا وانفتحت ميازيب
السماء وأقبل الرعد والمواصف ثم انهمر الغيث .

أخيراً أخذ الشعب بركة هذا الأب وكانوا يأتون إليه دائماً .
وظل القديس ملازماً تلك المنسجرة عشرة سنوات أخرى ،
وكان الشعب يزوره ، وكانوا يجدونه دائماً باكياً مستغيثاً بالله
جل اسمه إلى أن نبح الله نفس القديس واستراح .

وتعيد الكنيسة له في اليوم الثالث من شهر أسيير .
بركة صلواته تكون معنا ولربنا المجد دائماً أبدياً آمين .

† † †